بين التغيير والتبديل

أ. بوعلام باقي*

من المسلّم أن أمل الأشياء ثابت لا يطرأ عليه تغيير إلا بتأثيرات خارجية من عمل الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة وهذا شأن كل ما خلقه الله من كائنات حية أو ميتة متحركة أو جامدة مادية أو معنوية وهو سابق

---

* أستاذ ووزير سابق.

في علم الله الخالق الباري فلقد خلق الأرض وجعل فيها خليفة هو آدم وبنو آدم من بعده، غير آخذ بالاعتبار تنبيه الملائكة والله مترّه عن التنبيه بأن هذا البشر سوف يفسد فيها، يسفك الدماء وما هذا إلا سنة ربانية يخضع لها الكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإذا كان الأمر بالنسبة للماديات يدركه أي فرد مهما تفاوت فهمه فإنه بالنسبة للمعنويات يحتاج إلى شرح وتعليل حتى يرفع عنه كل غموض ولا يبقى عليه أي غبار ولنبدأ بما يلحق الإنسان فإنه ينشأ طفلا لا يملك قدرة بنفسه على نفسه أو على غيره مما يحيـــط به يخـــرج من بطن أمه فاقد التفكير

والتمييز ليس له من الشعور والإحساس إلا ما يجعله يبكي للتعبير عمّا يطرأ عليه من جوع أو من ألم باطني أو خارجي فتحيطه أمه بالعناية وتبقى معه إلى أن تنقله من طور الاتكال عليها في كل شيء إلى طور الاعتماد على النفس ومن طور اللا تمييز إلى طور التمييز البسيط فالكامل وهكذا يكتسب الطفل بتأثير من أمه وتحت رعايتها حركات وعادات تختلف من واحد إلى آخر حسب عناية الأم وتربيتها فهي التي تصلح طفلها أو تفسده وهي بحق المدرسة الأولى التي يلقن فيها الطفل القواعد الأساسية من التربية ويكتسب عادات وأخلاقا تختلف بحسب إعداد الأمهات وقد أضاف المربي المختار من الله ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم لهذا الدور وظيفة أسمى وأخطر فقال صلى الله عليه وسلم **يولد الطفل على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** ولم يذكر النبي الإسلام في هذا الحديث لأن الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ويؤخذ الإسلام هنا بصفته الأصلية العقيدية التي جعلت منه الدين الذي اصطفاه الله لسيدنا إبراهيم الخليل **﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1]﴾** وهو الدين الذي اتبعه أبناؤه من بعده من الأنبياء والمرسلين ورضيه الله لذريتهم ولسائر عباده وبعامل التغيير من الأتباع على مر الأزمان

1. سورة البقرة، الآية 131.

وتعاقب الأجيال ظهرت أفكار جعلت الدين أديانا والملة مللا وأدت إلى العدول عن الأصل إلى ما تفرع عنه فكانت اليهودية التي أشركت بالله عزيرا وكانت النصرانية التي أشركت بالله عيسى وما كان دين إبراهيم إلا واحدا وما كانت ملته إلا واحدة لكن الربيين والأحبار والقسيسين والرهبان أدخلوا عليهما من التغيير وأضافوا إليهما من الزيادات ما جعل أتباعهم يسلكون سبلا مختلفة يقينا منهم بأنهم على حقيقة من الدين ولم يتفطنوا إلى أن رهبانهم حولوا صفتهم الأصلية المبينة على التجرد للعبادة إلى رهبانية أعطت هذه المرتبة حق الوصاية والعمادة وهكذا الفكرة تؤثر على الأصل لتنحو به منحى آخر فترسخ في الأذهان وتبعدها عن الأصل وهذا ما يعطي التفسير الحقيقي لتحول البربرية من أصلها كدعوة عرقية إلى نزعة فكرية لمحاربة القرءان ولغة القرءان ولظهور الطوائف المارقة في تاريخ ديننا الحنيف من بهائية وقديانية وغيرهما من الفرق الباطنية التي تولّدت عن أفكار ابتدعها شياطين من الإنس فأصابت أرضية خصبة في عقول بعض السذج فصاروا لها من المروجين والأتباع وإن ما وقع بالأمس البعيد وبالأمس القريب من انحرافات لقادر أن يتجدد على أيدي آخرين إذا لم يتحل المسلمون اليوم العذر الذي يجعلهم لا يغترون بأحد حتى يمتحنوه بالقرءان ولم يتحلوا باليقظة التي تمنعهم من الوقوع في الفخاخ التي ينصبها لهم المتفقهون فلقد ابتدع رهبان النصارى رهبانية استعبدوا عقول أتباعهم بها وما قدرها الله ولا هي من الدين وجعل مبدعو البهائية والقديانية وغيرهما من الفرق الباطنية من أنفسهم أنبياء وهم يجهلون أن النبوءة ختمت بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بصريح القرءان وليس من المستبعد أن يظهر شياطين جدد ممن جعلوا الإسلام بضاعة يروجونها عن جهالة ونفاق فمنهم من يعطي للآيات القرءانية معاني غير التي أرادها الله يتصرف فيها بمحض فهمه الضيق وتفسيره الخاطئ ومنهم من أصبح عنده صاحب الرسالة سيدنا محمد عليه أزكى الصلاة والسلام مجرد مبعوث انتهت مهمته بتبليغ القرءان وأصبح من الغابرين بعد موته فلا اسمه يذكر

ولا شأنه يعظم ولا قبره يزار ولا أحاديثه يعمل بها إلا ما بدا لهم أن يثبتوه فأنكروا فضله واعتبروا إحياء مولده بدعة وجعلوا هجرته هروبا من العيب أن يؤرخ بها ومنهم من يتطاول على الأئمة الكرام أصحاب المذاهب فينقص لهم قدرا ويشوه لهم اسما فلا إمام أهل المدينة بقي مالكا بل صار هالكا ولا غيره سلم من الشتم والقدح والتجريح وقد وجدوا لهم أتباعا ينصرونهم على غيهم ويفرضون آراءهم على الناس ولو أوجب ذلك اللجوء إلى العنف والقهر الفكري وإن أخوف ما أخافه على الدين نشاط الذين جعلوا من أنفسهم أوصياء عليه يرمون مخالفيهم بالمروق ومعارضيهم بالردة فيكفرون حتى من هو أسلم منهم عقيدة وأقوم سلوكا وأقوى تمسكا بالدين وابتدعوا هم الآخرون رهبانية جديدة لا يقرها الإسلام وكهنوتا المسلمون في غنى عنه عملا بقول رسول رب العالمين أن صلوا خلف كل من قال لا إله إلا الله وأن لا رهبانية في الدين.